محكمة تأديب

تنقد في سوق

قصة اخلاقية للكاتب الاجتماعي ج . ن . بوري

ليس من حرفة في عاصمة البلاد الفرنسية ، قد تمت الى منابت الشرف الحق بأمتن الأواصر وأوثق الروابط ، كحرفة أولئك النسوة سيدات السوق اللواتي يخفين تحت كلامهن المرسل على السجية ، وجفاء أسلوبهن ، نزعات الأنفس النبيلة ، ولزوم طبائع الاخلاص والكرم

ودارس الاخلاق المتمعن المتقصي ، يجد في السوق صورة قد جمعت فأوعت من خسيس المشاهد ومؤثرها معاً . تحمل على الضحك تارة ، والاهتمام والعجب تارة أخرى

وما أنسى لا أنسى ذلك المشهد الرائع البالغ الذي تملأت به عيناي ، يوم خالفت دول أوربا على أجدادنا المظفرة ، فردتها لأول مرة ناكصة على أعقابها ، إذ صارت فئة قليلة تقاتل فئة كثيرة لا قبل لها بحربها . وكان (ميدان الارباء) الفسيح يفيض بجساد الجنود بين شيخ وحدث : جرحى قد خرجوا بدمائهم ، يتزلونهم من فوق النقالات على عجل ، وكانت وجوههم تترهمها صفرة ، قد بداعليها الاعياء والتضعضع ، وكنت تقرأ في أحداق عيونهم الكيد والكمد مما أصابهم من خذلان وانحسار ، وكان تساقط قوى البعض ، وخمود جذوتهم ، وما يتصاعد من أنين البعض الأليم الموجع ، والدماء الغزيرة التي لا ينقطع تدفقها من جروحهم ، كل ذلك كان يحرك رقة قلوب سيدات السوق ، فكن يحملن فوق كواهلهن أولئك الجنود المثورة أعضاؤهم لا يراعين في ذلك رتبة ولا سنا ، ويطرحونهم فوق فرش موطأة على عجل ، ثم يمضين مرتقلات الى الأحواض يغترفن الماء في راحاتهن ليمسحن به في رقة جروحهم المتزقرقة بدمائها . ويضمدن بين أذرعهن ، ويدفئن باقاسين القدين منهم أخذ برد الموت يغتر أجسامهم . وكن يجأرن بالدعاء الى رب السماء ان يحفظهم ، ويزدن شفقة الناس لاسعافهم ، ويجعلن من هذه السوق المعروفة الزاخرة بأشهى ما تخرجه بساتين فرنسا ، ضرباً من مستشفى عسكري

إن الرحمة والانسانية عند أولئك النسوة الفضليات واجب ولذة . وبر الآباء خاصة عبادة وتقوى . وانما نشأت هذه الفضيلة فيهن من مقالة الصعاب والأحوال ، ومعاناة الشدائد والمشاق ليدخرن ما يكون منهن في شيخوختهن ، بعض الكفاف والغناء . وأن الولد الذي يرى امه

تراني هو ، منذ الصباح ، وحسرت تنتظر قبلها ، تمضي تتيم في دكان من أدراج الخشب تعاني فيها تنهدات الحصول . ويجرها تعود به تفيض عليه من حنانها وحبها ، وتقوم على تجهز طعاماً جشباً عليظاً ، ثم تنقل ناظرها في جوانبها الذي استودعته الى حين ، احدى جوانبها ، ان هذا الولد الذي يقيم في منبوم بين ، حنان امه وحبها الدائب ، والذي إذ يحصى ما تلقاه في سبيل ذلك من كد دوصب وبذل لتربيته وتنشئته وإعالة قومه . تفيض جوانحه بالمحبة والإكبار الدائمين على كر الليالي . فيفرسان في قلبه وبنيان صدق الرغبة في الوفاء لها يوماً . هذا انت ترى لدى قطان الاسواق ، الجم الوفير من شيوخ الرجال والنساء قد احاطهم ابناؤهم بأشد بر وأبلغ رعاية . يلاقون منهم ذلك الحدب وذلك الحنان الذي افاضوه عليهم يوم كانوا احداثاً ناشئين . وتجد لهم عليهم سلطاناً ونفوذاً باقين ما بقوا هم في قيد الحياة

وفي قصة تحبيبة تصورها ذلك البر البنوي الذي استكن في ضلوع باثعات السوق واستمسكن بوثيق عراه ، جمعت بين الموعظة والمثل الاعلى ، ملتزماً الدقة والامانة في سرد وقائعها كما جرت ، فانها بذلك حقيقة ، حري ان يكون في سردها حجة بالغة للذين علوا في الناس من ذوي الأبهة والمجد ، اذ نرى كثيراً من السوقة قد استوفوا من سنة ونظاماً خُلُقيًّا ، لا نجد مثله عند الخاصة ، ولا يمكن ان يجتمع على مثله اهل الوجاهة واليسار ، وان محكمة الرأي العام هي احياناً أشد صرامة وأشد رهبة لدى أسافل الناس مما هي لدى اكابرهم

***

كانت لزينب حنة من أزواج باعات السمك في هذه السوق وارفهن حالاً ، واجلهن وجهاً ، واحبهن ملاحة ، مع تلك الطلاقة والشقشقة وتلك السيرة التي لا عوج فيها ولا امت مما تمتاز به اكثر نساء حرفتها . وكانت ابتسامتها للراحة الماكرة تنم على ارادة قوية واستقلال يكاد لا يحفل بأدنى ما تقتضيه اللياقة . فنما كانت تكترث بمن تحدثه نفسه بالوقيعة فيها ولوك سيرتها . فقد كانت ذات خُلُق وحمود نقبة ، وكانت بشهادة ضميرها راضية قانعة . بيد انها لفت بصرها واسترعى اهتمامها من ضمن اولئك الفتيان الكثيرين الذين يختلفون الى محلها ، ساعي بريد مدعى برزان . وهو غلام مديد القامة شديد فتك سمراح ، محوط برعاية ووسائله ، مستوثق بالترقية وزيادة المرتب ، ولما كانت رغبته في الزواج بها ، دعته الى منزلها وعرفته الى ابيها . وكان أبوها واسمه الأب سوران ، يشتغل مراكبيًّا في بناء نهر السين ، واضافت امرأته كف عن العمل واقام لدى ابنته مع امه العجوز المقعدة التي كان جم الحب لها . يجد قرة عينه في توقيرها وحياطتها بأسباب الرعاية

ورحب ابو الفتاة بخطب ابنته وهش له مستبشراً مطمئناً ، وتعدد يوم العقد ، وبكى الفراكي الشيخ مرض مرضاً شديداً مات منه . وكان في آخر ايام حياته لا اهتمام له الا بأمه والعناية بها . فلما حضرته الوفاة اوصى ابنته بالقيام بمقامه لدى امه ، والتخفيف جهدها ، مما تعاني من آلام الزمانة(١) واكدارها

وكانت هذه الجدة الكريمة قد اصابها الفالج . وكانت تقضي ايامها جاثمة على مقعدها تحوط اذ كانت لا تزال تجد بقية من قوة ، ولكن كان لا بد كل يوم من نهوضها وإقامتها كطفل في المهد ، وكان لا بد من دفعها بمقعدها لدى النافذة لاستنشاق الهواء والانتعاش بأشعة الشمس . ثم كان لا بد من تجهيز طعامها ، والاحتمال احياناً لبوادر الغضب وقلة الصبر ، مما يكون عادة عند الذين بهم مرض او آلام ، والطاعة ولو لأهون ما تأمر به ، اذ كان موران انها قد عوّدها الحكم والتسلط . ولتشوق بذلك هوى واستمساك . وموت هذا الولد الفطن اللبيب الملقاة لها ، زاد هذه العجوز المقعدة حنقاً وحدة

وقد اختلتها لويزه حيناً من الزمن لا مستفقة ولا متذمرة ، إذ كانت لا تفتأ تذكر وصية أبيها الراحل . وكانت مما طبعت عليه من بشاشة وسرعة ردودها المُفْحمة ، تحمل جدتها على الابتسام وتحضها على الضحك ، بل كانت كثيراً ما تحدث جرة اوجاعها . بيد ان لويزه ، لما كانت مضطرة للذهاب الى دكانها في السوق ، والتفرغ لشؤون تجارتها ، فانها أنابت عنها في خدمة جدتها ، صبية يتيمة في جوارها كانت تضمها تصدقاً وزكاة ، فكانت الصبية تقوم بخدمة العجوز خير قيام

وانقضت على ذلك عدة اشهر والعجوز الكريمة لا تشعر بأدنى فتور في العناية بها والتوفير لها . ولكنها لم تلبث ان تبين لها ان لويزه امسكت عنها ما كانت تغدق عليها من تلطف وتبسط وما كانت تلقاه من برها البنوي واحتفالها بتلبية رغباتها وتخفيف اوجاعها . ولا شيء يسرع بالمرء الى التأثر والشعور بالاهانة من كونه عالة على ناسه وقومه ، ولا شيء يضيق منه ذرع الانسان ويفسد عليه نفسه وخلقه كتحكم الاقدار فيه أن يُعنى به ، من كانهم على العناية به مُمْتَنون كارهون . وكانت لويزه ، وان كانت لا تقذف جدتها بأية كلمة جارحة ، انما تقوم بخدمتها كأنما يؤودها حمل ثقيل ، وتضطلع بواجب عسير كتب عليها اداؤه ، وكثيراً ما تؤديه وهي متبرمة بادائه متضجرة . وما لبث التذمر أن اعقب السكوت والكظم وما عتمت العجوز موران ان ركنت سر هذا التذمر ، وانه أثر الفتور امسى يقابل به ساعي البريد خطيبته التي صارحها بانه لن يكون

(١) عجز او علة تزمن

لها بملاً ، ما دامت جدتها سها ، وان بن كانت في مثل زمانها وعجزها لتطلب عناية بيئة واهتماماً بها شديداً وان خلقها الذي ساء يستسر لا قبل له باحتماله

ونبئت لويزه حيناً تجاذب في موقفها هذا بين جدتها وخطيبها ، ولكنها لم يعدها الا الاذعان والتسليم . وقد ابدت جدتها نفسها رغبتها في الخلاص مما تقاسي من ألم الثقيل على حفيدتها والاعنات لها في خدمتها . فطابت نفساً بالنصاب الى احد الملاجىء فتكفل لها حفيدتها اسباب العناية وتحوطها بضروب الحنان والتخفيف جهدها . وما قيمة الوعود في مثل هذه الحالة . انما تأتي على قدر الرغبة في الخلاص مما يثقل علينا حمله ويشق علينا أداؤه

وما لبثت العجوز المفلوجة ان حملت الى بعض ملاجىء باريس منقطعة عن الاهل والاصدقاء بين امرها اولئك المرضون والملاحظون الذين توزعت عنايتهم وتشعبت خدمتهم بين العدد الكبير من هؤلاء العجزة ، فما يصيب كل واحد منهم الا جانباً ضئيلاً من تلك العناية . مسكينة ايتها العجوز ! كم تشعرين الآن بشدة الالم وثقل وطأة ما يرهقك من عجز وسوء حال ! وما اشد ما احاط بك من حرمان ووحدة كوحدة القبور قاتمة !

على ان لويزه لم تكن تألو جهداً في زيارة جدتها في مشرق كل نهار ، حاملة لها من لطيفات وشتى ما عساه يخفي مرارة عيشها ويهون بعض شدتها . وكانت تمهضها بنفسها ، وتساعد على جيوسها ، وتوصي بها الممرضين رحمة وبراً . بل لقد رآها الناس غير مرة تمهر الدموع من مآقيها اذ تفارق جدتها وتغادرها طريحة الوحدة ، فريسة الابث والمضض ، وتصعد زفرات اللهفة والحسرات ، ثم اذ تودعها بنظرة أخيرة متحيرة مشفقة ، تعود الى السوق تأخذ منها موضعها حيث لا تلبث مشاغلها وحضور ساعي البريد ان يحجر من بالها ما كان من امر جدتها

وما انقضت بضعة اسابيع منذ طرحت لويزه جدتها في المستشفى ، حتى نزلت بها نازلة ، وألم بها خطب شديد فعلمت ان الخارجين على حقوق الطبيعة المقدسة لا بدّ يناهم القصاص العدل ذلك ان انقيادها لخطيبها والمسارعة في اطاعة أمره واخراج جدتها من بيتها ونبذها في ذلك الملجأ ، ذاع بين جميع بائعات السوق ، ولهؤلاء السيدات ما يشبه محاكم التشاور . تشريع محكم يقضي في كل ما يتعلق بكرامة الطائفة وشرفها وامتيازاتها . واحكامه نافذة لا تنقض ولا تخالف

فذات صباح اذ كانت لويزه في حانوتها تعرض على الشارين احسن ما لديها من الاسماك وهم بسحر حديثها مأخوذون ، إذا بها قد احاط بها وهط من اقدم بائعات السوق ، واخذت احداهن تسألها هل حقّ ما بلغهنّ من امر طرح جدتها في ملجأ

فقالت ، وقد اسطبغ وجهها بحمرة الخجل ، وهي تجاهد في كتمان اضطرابها : ياعجباً لكنّ ! ومالكنّ وهذا الأمر ؟

فقالت كيرتين : مالنا وهذا الامر ؟ إن لنا أن لا نذر بيننا ابنة جاهرت بالعقوق . فأبي على والديها ما تلقته منهما وهي طفلة ناشئة . قولي لنا يا لوزه ما فعلت بجدتك ؟

قالت : لكن ما شكن احد يحسب علي

— إنا جئنا موفدات من قبل جميع زميلاتنا بائعات الزهور والفاكهة والسمك ومن ضمتهن السوق في رحبها وجنباتها ، تذرك بالاقلاع عن موقفك هذا او يُمَطْمَط[1] بك من في السوق ويلطخون وجهك بالزحل إن عادت بك قدم الى هنا

— فقالت المحكوم عليها متلجلجة تحاول كتمان اضطرابها : إن هذا لأمر مريب ! ما حكومتكن هذه الجائرة ! أيسوغ لكن حرماني من محلي ؟

— تعاطيه في مكان آخر . فما أكثر الاسواق في باريس

— ألكن ان تتداخلن في امري وتخضن في سيرتي وشأني ؟

— نعم . ان مسّنا من سيرتك ضير

— وأن تقضين بعاري وفضيحتي

— نعم لندفع عن انفسنا العار والفضيحة . وبعد ، فما كنت قد ضحيت بجدتك ارضاء لشهوة خطيك وانقياداً لارادته ، ونكثت بالعهد الذي واثقك به ابوك الراحل ، فركبت سوأة البذ لأمه المفلوجة في بعض الملاجيء ، فقد حرمك اهل السوق من رعايتهم وطردوك من حظيرتهم . ولا يمكنك البقاء بين الصالحين الذين حسنت سيرتهم عن ضمتهم هذه السوق بين اكنافها

— ومن ابأ كن انه في مقدوري ان ابقي جدتي ضدي ، وآتي لها بمعرضة تقوم على خدمتها ابداً

— عذراقبح من ذنب . انك لأحق سلعة وأروج بياعة من كل بائعة سمك في هذه السوق . وانك لترجين في يوم ما يقوم بنفقة بيتك واهلك اسبوعاً

ثم قالت كيرتين وهي تومىء الى ما تزينت به لوزه وتبهجت من حلي :

يا ويحك ! أفتجسرين ان تطوقي عنقك بقلادة تُقَوَّم بخمسمائة فرنك ، وتتقرطين بقرطين ثمينين ، وعلى رأسك عصابة من نسج نفيس ، ثم تطرحين جدتك في ملجأ ! ... يا زنيمة ياعاقة ! ... أعزبي من وجهنا ، حبلك على غاربك . أقيمي حيث شئت الا هذا المكان ، قد لزمك عارك والندم على جريرتك

وتعالت اصوات النساء اللواتي اجتمعن من اركان السوق لمشاهدة ذلك الحادث الغريب ، في لحظة واحدة تقريباً يخلن :

---

(١) من انمطمطة وهي حكاية صوت الجمال اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا ضلوا قوما

— نعم . نعم . فلتعزب على عجل . لقد أخذت بأقدس الواجبات ، وخانت ما عهد وخان الشرف . ثالثة بما هنا احد يرضى ان تقيم بيننا . بيض والله انيابها مقامها وحلولها ، تدق سنة نفوسنا وتمحض . وان فيها لمثل سوء لاولادنا يحملهم يوماً على العقوق والزراية بنا . . . فلترحل الساعة ولتذهب الى حيث ألقت

وحاولت السكينة دفع هذا الحكم الذي نطق به رفيقاتها ، ومغالبة تلك (١) المجتمعين ومخيبهم من حولها عنها . فما وسعها الا الانصراف ودمع عينيها سيل منهمر ، وحمرة الخجل تغشى وجهها . تمشي متخاذلة ، نادمة ساخطة ، ولكن لات حين مندم . لقد تعجلت في الانقياد لخطيبها . ولكن عسى ان يكون لها من حبه وزواجه بها ، عما لحقها من اهانة بالغة وخسارة متجرها الرائج الرائج ، عوض وخلف جميل ! ولكن هيهات . انها ما لقيت بعد الا بعض ما حق لها من قصاص

فلله ان ساعي البريد ، إذ علم ما حاق بها من إهانة وتحقير على ملأ الناس . ولا سيما ذلك الحكم الذي قضى به عليها اهل السوق كافة ، اخذ حبه لخطيبته يختل ويذري يوماً فيوماً ذلك ان المحبة بغير احترام لا تدوم . فجعل يبدي له ذي بدء ما يتباطأ في رؤيته لها ، ويشرع يختلق ضروب المعاذير لتأخير زواجه بها . وكان منتهى امره ان صارحها باستحالة زواجه بفتاة ليست بعذراء وبضعة في افواه الناس ، فانه بذلك يتعرض لضياع وظيفته ، ولا سيما ما استوثق منه من امر زيادة مرتبه ورفع درجته . فصرم حبلها وتأبى تهارغم اعترافه بانه كان شريكا لها في ما فعلت

فما وسعها الا ان تمضي تتيم في احدى اسواق باريس النائية عن السوق الكبرى ، فما سادت ذلك الرواج والنجاح . وما لبث موت جدها السكينة التي اعجزها ان تغالب اشتداد كربها وبثها اذ نبذت في احد الملاجىء ، ان ضاعف ندمها وأجج غمها ، فاذا هي كئيبة قد ذهب عنها مألوف بشاشتها ، واضطرت ان تبيع بعض السمك المملح او سمك الماء الحلو في احدى ضواحي العاصمة حاملة سلعتها من حي الى حي واخذت تهوي في حالة شبيهة بالبؤس والخلة . وما لبثت ان مُنيت بعلة مستعصية بسبب ما استكن في نفسها من غم وكمد شديد ، وهي التي كانت لا تسعها الدنيا مرحاً ورتوعاً (١) فما وجدت الا ان تأوي الى احد المستشفيات حيث ذاقت مرير الاهل والصحاب . وادركت اخيراً ان الله يسم وجوه العاقين من الابناء بوصمة المطرودين المنبوذين ، ويبتليهم عاجلا او آجلاً بالوحدة القاسية التي أوقعوا فيها آباءهم

[تلتها : أحد أبو الخير منصي]

(١) السخرية (١) نعمة العيش وخضارته